فانه يتعامل مع الموت بحنان بالغ . يكتب مرثية القصيدة التي سكنت رجلا ، لذلك يغلب الطابع التأملي على النص باسره . وينساب التوتر داخل هدوء الموت « ذهب الموت الى البحر ، وظل البحر ازرق . بلغ الموت سن الرشد في كمال ، فحمله وطار . وكان الرخام والمطر يتهمران بلا سبب . صار الموت هو الذي يلعب وبقي كمال ناصر فينا ، كما هو » .

عندما احب الحصان الغزالة ، ولد التحدي . لذلك جاءت نصوص القسم الاول من الكتاب ، بشارة للحرب ، من خلال الدم الذي لم يتوقف والالام العظيمة داخل العرس الفلسطيني ، الذي يحمل داخله مفتاح تناقضات الزمن العربي بأسره. ومن داخل لغة النثر الصافية كان الشعر يتوالد انفجارات تحمل خطابية انفعالية ، قادرة على نقل اللحظة من التأمل الى الفعل ، دون السقوط في شرك اللغة الجاهزة . فدرويش يعيد اكتشاف اللغة فيما يبحث عن فلسطين داخل الفجيعة . هكذا تبقى هذه التأملات جراحا داخل الجرح ، لانها تتواصل مع الحلم الذي يتجسد داخل الممارسة النضالية .

اللحظة الساخنة

القسم الثاني من الكتاب — صباح الخير ايها الفرح — هو مجموعة من الملاحظات والتأملات التي كتبت ايام حرب تشرين . لذلك تحمل قلق اللحظة وتوترها ، واهالها . لكنها لا تتوقف فقط عند ظواهر المعركة ، بل تنقل المشاعر الدفينة التي تغلغلت في المسام منذ بداية عصر الهزائم المتتالية والاحلام الكبيرة . فهي تخاطب العالم بلهجة تقترب من «ميونيخ» لكنها تأتي هذه المرة خالية من الحقد المدمر . تحمل الثقة بالنفس الى جانب الحلم الكبير . وعندما نصل الى عقدة اليوم السابع في الحرب ، ترتفع الابتسامة الواثقة الممزوجة بالدماء « نحن الان في اليوم السابع ، لا نرتاح من العمل ، ولكننا نرتاح من الهزيمة . اليوم عطلة الهزيمة » . داخل لحظات النثر هذه هنالك مكان واسع للشعر . فتأتي « بطاقة الى دمشق » لتحمل جميع خصائص بنية القصيدة . التداعي الذي يستجمع اللحظة الشعرية :

« ساعي البريد ينتظر
والفراشة تحارب
ولا تنتهي رسالتي اليك يا دمشق »

ثم تتداخل الكلمات في الشكل الشعري ، التشبيه الذي يتمركز على الفعل « كأن الاغاني أصيبت بحنجرة لا تغني » والصورة التي تنتقل من الوصف الخارجي لتضمنه توترا حادا ، يأتي من المسافة الظاهرة بين الصورة والانفعال . لذلك يتوتر النص في هدوئه الموضوعي ، ويأتي الشكل اللولبي ليدور المسافة بين بداية النص ونهايته . ثم ننتقل الى نصوص تحليلية . لكن التحليل هنا لا يهمه سوى استجماع مفاصل التجربة الصهيونية ليقوم بادانتها من داخل . ولعل محمود درويش هو اهم من كشف تناقضات « المجتمع الاسرائيلي » الجذرية . فهو لا يتوقف عند التحليل السوسيولوجي ، لكنه يتوقف اساسا عند الحلم الصهيوني وخيبة تحقيقه . يتعامل مع هذا الحلم من الخارج والداخل . فهو في الخارج ، داخل المعسكر الذي يحمل التناقض المركزي مع اسرائيل، وهو في الداخل يبحث عن التناقضات الداخلية في الفكرة الصهيونية وفي الممارسة السياسية والعسكرية الاسرائيلية . والتفاؤل التاريخي الذي تحمله هذه النصوص ليس تفاؤلا فنيا . انه تفاؤل سياسي — تاريخي ، اي واقعي مئة بالمئة . فحين تكون « هزيمة العدو في ذروة انتصاره » . فان التفاؤل التاريخي البعيد كل البعد عن الخطابية الجوفاء ، يؤشر الى حقيقة الوعي الثوري الذي حمله عرب الارض المحتلة عام ٤٨ . فتفاؤلهم التاريخي الذي انتج شعرا استطاعت الايديولوجيا العربية السائدة استيعابه (لاسباب تكوينية تتعلق بولادة الشعر في الارض المحتلة والطموح الايديولوجي الذي عبر عنه — المسألة القومية — هنا صب في الايديولوجيا العربية التي كانت تمر بمرحلة تطور متقدمة تختلف فيها الدلالات عن الدلالات في الارض المحتلة . لذلك استطاعت استيعابه شكلا ومضمونا دون ان تستطيع منع بذوره المستقبلية من التطور) . اثبت اصالتهم — ليست فقط زمن المعارك في تشرين . بل في مرحلة « الانتظار العائد » كذلك .

تستطيع الكتابة الساخنة ملامسة الجراح . لكنها تتوقف عند حدود هذه الملامسة . ورغم ان درويش يبتعد عن المباشرة ، وهن الكتابة الصحفية